صندوق الذكريات

ينقذ البنات

(رواية لليافعين)

للكاتبة : جيهان سلام

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الأديب للطبع والنشر والتوزيع

اسم الـــدار	دار الأديب للطبـــع والنشـــر والتوزيع
اسم الكتاب	صندوق الذكريات ينقذ البنات
اسم الكاتبة	جيهان سلام
رقم الإيـــداع	(٢٠٢٠/٣٧١١) بدار الكتب المصرية
الإخراج الفني	لدار الأديـــب للطبـــع والنشر والتوزيع
الغـــلاف	من تصميمات الدار

Facebook: Dar.Aladeb

Email :daraladeeb@Gmail.com

Tel: 002- 01014449164

إهداء

هذا هو العمل الثالث من مشروعي عن الدمج الاجتماعي والثقافي للأطفال المهمشين وتمكين الفتيات ومواجهة كل أنواع التطرف الفكرى .

أهديه إلى :

كل الفتيات في النجوع والكفور والمناطق العشوائية اللاتي يعشقن الحياة رغم آلام الفقر ، والجوع ، وقسوة العادات والتقاليد التي مازالت تحرمهن من طفولتهن كالزواج المبكر وختان الإناث ، والحرمان من التعليم ، وعمالة الأطفال .

إلى كل طفلة وطفل يتحدى السرطان ويهزمه .

إلى كل الأطفال الذين هزموا الأمية .

إلى الأطفال ذوي القدرات الخاصة الذين يبهرون العالم كل يوم بعبقريتهم .

إلى كل أطفال العالم في مخيمات اللاجئين .

إلى كل من قال : لا للتطرف في الفكر والسلوك

كل هؤلاء يحبون الحياة رغم الألم .

د . جيهان سلام

سـر الصندوق

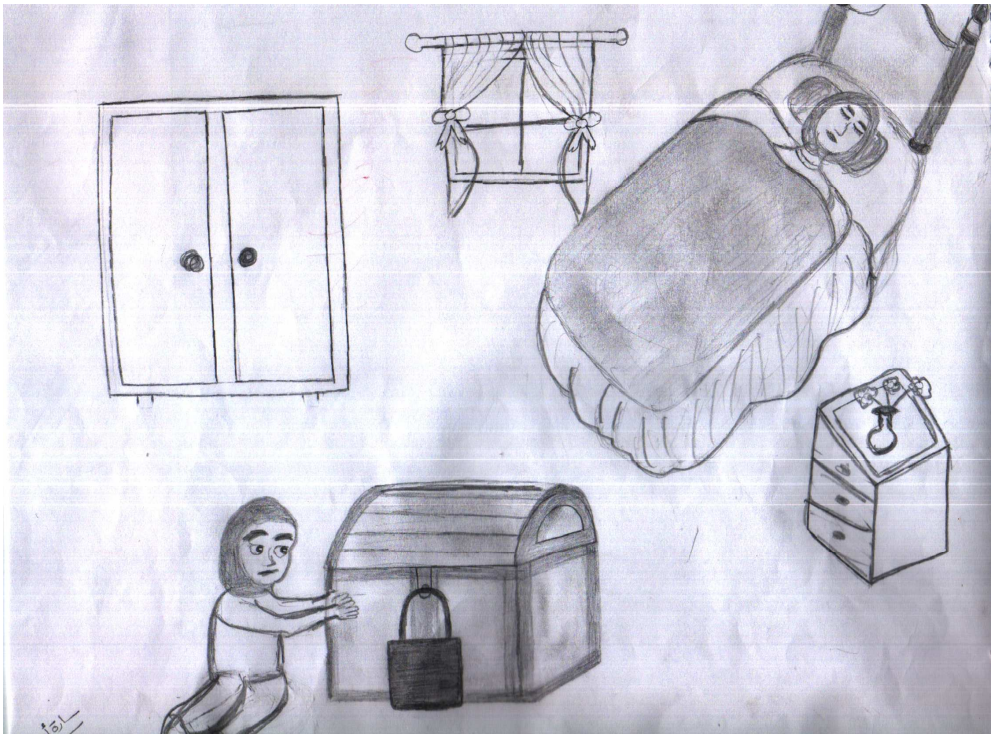

الآلام التى تعانيها" شمس" لم تصرفها عن التفكير فى الصندوق الذهبي الصغير ، لا من أجل لوحاته النباتية المحفورة على أخشابه المدهونة باللون الأصفر ، ولا من أجل الحفر الذى يتوسطه على شكل قلب ينبض ، فيبدو للمتأمل كما لو كان يضخ الدماء فى سائر الصندوق .. يتوسط هذا القلب مفتاح الحياة المرصع ببعض الأحجار الكريمة .

هذه التحفة الفنية التى لا تزيد طولاً وعرضاً على حجم كتاب مدرسي ظلت هى عنصر التساؤل والتشويق لشمس منذ أن بدأت تعي الحياة ، فقد بلغت الآن عامها الثاني عشر ، وتفهم جيداً أسباب آلامها المبرحة ، وتدرك أنها سوف تنتصر عليها فى النهاية .. لكن ما لم تنتصر عليه ، وما لم تحققه هو رغبتها فى معرفة (سر الصندوق) وما يحويه من مفاجآت !!!

- لو كان هذا الصندوق يحوي نسخة من القرآن الكريم بداخله ، ما منعتني أمي من فتحه لأقرأ فى كتاب الله .. هكذا حدثت شمس نفسها .. واستطردت في الحديث :
- أمى لا تمنع عني شيئاً من متع الحياة ، ولدي أفخر الثياب ، وأملك كثيرا من المشغولات الذهبية : عقوداً وغويشات وخواتم وسلاسل ، وحتى إذا فقدت – أثناء لعبي – شيئاً منها ، لا تعنفني أمي .. ولا تردد سوى قولها :
- فداك يا حبيبتى الدنيا كلها .. المهم أن يشفيك الله من هذا المرض الخبيث .. وتكفي معاناتك معه ، ومعاناتك من بعد أبيك عنك ، أما إذا لمست يدي الصندوق القريب دائماً من سرير أمي تمنعني بحسم وقوة قائلة :

- لا .. لا يا شمس .. ليس هذا وقت الاطلاع على ما في الصندوق .. انتظري حتى أرحل وافتحيه .
- ترحلين إلى أين ياأمي ؟ وهل يمكن أن ترحلي إلى مكان وتتركيني وحدي ؟
- أقصد عندما تصعد روحي إلى السماء يابنتي ، ولك أنت العمر الطويل .
- لا يا أمي .. لا تنطقي هذه الجملة .. أطال الله عمرك .. إذا كنت تربطين معرفتي بما فى الصندوق برحيلك عني ، فلا قيمة للصندوق والدنيا كلها أمام يوم واحد أقضيه معك .. فأنت أمي وأبي .. معاً .
- لا يا ابنتى الحبية .. أنا أمك فقط ، فأبوك ـ أطال الله عمره ـ موجود ، ومنشغل بك دائما ، ويسأل عنك في كل الأوقات .. لكنه في سفر دائم إلى خارج مصر .. إنه تاجر ، وظروف عمله تجعله في ترحال بين بلاد العالم : الصين والهند وباكستان واليابان وأندونسيا وماليزيا وأوربا والبرازيل .
- أيظل راحلاً هكذا طوال العمر يا أمى ؟!
- عمله يا ابنتى .. عمله يحتم هذا .. وأنت ترين اهتمامه بك متمثلا فى هذا البيت الجميل الفخم بحديقته الواسعة الغناء ، وبما يرسله إليك من ذهب وملابس وألعاب وأموال .. هل أحسست يوماً بحاجة إلى شئ ؟!
- حاجتي هي أن أراه يا أمى .
- ترين صوره تزين المكان .. ويوماً ما سترينه وتعيشين معه وتدركين أنه رجل عظيم وأب طيب .
- هل سيسمح لي عندما يعود بفتح هذا الصندوق ياأمي ؟!
- اصبري لا تتعجلى . بمجرد وفاتي افتحيه يابنيتي .

هذا الشريط من الذكريات جرى أمام عين شمس فى لحظة ، وهى تغالب دمعها أثناء فتح الصندوق الغامض !!!

بصعوبة تجفف دموعها كي ترى ما يحتويه الصندوق السري هذا .. وكأنها لا تصدق ما ترى لا لغرابته بل لبساطة شكله .. وراحت تتساءل وهى تفرز أشياء الصندوق :

- ـ رحم الله أمى ، لقد ماتت في عز شبابها من الحزن عليَ بسبب إصابتي بهذا المرض اللعين !!! ولكن لماذا كانت تخفي عني هذه الأشياء العادية ؟! إنها مجموعة من الجنيهات الذهبية ، وأنا معي أكثر منها و(طاقية) يبدو أنها طاقية أبي .. ومسبحة ، وتماثيل صغيرة لفيلة وزرافات ، وغزلان مكتوب عليها : صنع فى الهند ، فى اليابان ، فى ماليزيا .. وخنجر من صناعة اليمن ، بل وتمثال لأخناتون مصنوع فى الأقصر وخاتم من الفضة عليه اسم جدي .

تتواصل اندهاشة شمس وقد احتلت الدهشة محل الحزن على وفاة والدتها مؤقتا :

- وما هذه سوى صورة لأبي كتب علي ظهرها بخطه إهداء لأمي فى عيد زواجها الأول ، ويتحدث عن الجنين القادم الذى يتمناه ذكراً ، وقد مل من كثرة إنجاب البنات !!

كان التاريخ المسجل فى ظهر الصورة ٢٥ يناير .... وما هذه الأوراق الأخرى ؟!! وثيقة .. وثيقة طلاق .. وثيقة طلاق ؟!! منْ طلق من ؟!

لا تستطيع شمس حبس شلال الدموع الذى انفجر وهى تنتقل بين الكلمات على سطح الورقة بصعوبة وثقل وتلعثم ، كما لو كانت تحمل جبلا فوق ظهرها ، أو أنها تحمل صخرة " سيزيف " كلما أوشكت أن تصل بها إلى قمة الجبل تدحرجت منها

الصخرة إلى أسفل ، فعادت تحملها من جديد..وهكذا لا هى توقفت عن حملها ولا هى تمكنت من الصعود بها إلى القمة !!!
الكلمات في (وثيقة الطلاق) تشبه هذا الجبل الذى تصعده ولا تصل إلى قمته :
أبي يطلق أمي ، وبعد أن بثها حبه وهيامه فى صورته هذه بستة أشهر فقط ؟!!
ألا يمكن أن أكون أنا الجاني ؟! أبى طلق أمي لأنها أنجبتنى ؟! ..الحزن قتل أمي مرتين .
لم ترغب " السيدة أمينة " الجدة العجوز أن تتدخل بين شمس وصندوقها وذكريات أبيها وأمها وأسرارهما ، أو تقطع عليها أشجانها المتدفقة إلا حين سمعت سؤال شمس الأخير ..
فتقدمت الجدة أمينة منها واحتضنتها وقالت :

- نعم يا ابنتى .. أنت الفتاة السابعة لأبيك ، والطفلة الوحيدة لأمك .. ولك أخوات أخريات من أبيك ، من ثلاث زوجات غير أمك ، وأبوك للأسف ياشمس يخجل من إنجاب الإناث ، ويعتقد أن إنجابهن عقاب من الله .
- لا .. لا أصدقك .. أبي رجل عظيم ويحبني ، هكذا قالت أمي .. أبي طيب .. إنه مسافر مسافر فقط !!

وكما لو كانت شمس تريد أن تنفي عمليا مقولة الجدة ، فمدت يدها لتقرأ ورقة مطوية فى ظرف أبيض ، قرأت .. بذهول إلى حد أن صوتها انقطع وهى تقول على لسان والدها حسن منصور : (... وقد تعبت من إنجاب البناتٍ ، أريد ولداً يرثني ، ويساعدني فى شيخوختي ، لكن كلٍ منكن – كزوجات – لم تمنحني هذا الولد .. كلكن تنجبن بنات .. بنات .. بنات .. مللت من البنات .. لا أريد البنات وأنت

الزوجة الرابعة ، وأريد أن أتزوج كي أنجب ذكرا .
أنت طالق يا دولت !! ولك أن تقيمي فى هذا البيت ، وسأنفق عليك أنت ومن أنجبت،ولكن لا أريد أن أرى أياً منكما أبداً !!
مسحت جدتها على رأسها الذى تساقط شعره تحت وطأة المرض الخبيث ـ السرطان ـ ، ورفعت العجوز يد شمس لتقبلها وتضمها إلى حضنها قائلة :

- خففي عن نفسك يا ابنتى .. تحتاجين إلى الرضا والسعادة لتنجحي فى قهر السرطان هذا .. ولذا فقد منعتك " أمك دولت " رحمها الله من الاطلاع على هذا الصندوق قبل وفاتها حتى تجتازي أزمتك الصحية ، لكن القدر كان أسرع فى اختطافها قبل أن تشفي تماماً .
- الآن .. لا أريد أن أشفى .. أتمنى اللحاق بها !! كانت تقول لي أن أبي رجل عظيم وطيب !!
- هكذا يفكر كثير من الرجال يا ابنتى .. ينفرون من (خلفة) البنات .. ولولا البنات ما كانوا هم .. لولا النساء لا نقرضت البشرية فلا تغضبي .. وعليك أن تشفي ، وتتفوقي وتنبغي فى حياتك ودراساتك ليدرك أبوك أنك أعظم من كل ولد كان يتمنى أن ينجبه .. هو مازال يتزوج الكثيرات الكثيرات من الفتيات الصغيرات ، على أمل أن يحصل على ولد .. ولم يمن الله عليه بالولد !!
- أما زال يتزوج ويحلم بالولد حتى الآن ياجدتي ؟!
- نحن عن بعد نسمع أخباره يا شمس ، ويقال إنه مازال على سلوكه هذا حتى وقد تجاوز الخمسين من العمر .. ويصر على أن ثروته الطائلة لابد أن يرثها ولد لا فتيات !!
- فى الخمسين ومازال يتزوج من بنات صغيرات ؟!
- يتزوج فقط ؟! يا ليته يتزوج كسائر الناس !!!! بل .....

الزرزور والزرزورة

لم تكمل الجدة أمينة عبارتها حين راح ينقر على زجاج الشباك فى غرفة شمس عصفوران ؛ فتوقفت الجدة عن الحديث وانصرفت عيناها وانتباهها إلى الزرزورين ، ولم تكن شمس مشغولة بهما ، حتى هبت العجوز إليهما تقول باستغراب :

– أمر غريب .. فى كل مرة كانت الزرزورة وحدها تأتى إلى غرفتي لأطعمها الحب ، فتحمله إلى أبنائها .. أما الآن فقد جاء معها زرزور آخر ..

التقطت أذن شمس كلام الجدة كما لو كانت قد استفاقت على هذه الملاحظة الدقيقة ، فهمست في نفسها :

– لعله زوجها !! حتى الزرزورة لها زوج يرافقها فى الحياة .. ولم يكن لأمي زوج يرافقها .. بسببى !!

اندفعت العجوز ، وقد حملت الحبوب متجهة إلى الشباك وفتحته لتضعها أمام الزرزورين ، فلم يذعرا ، ولم يطيرا ، بل أنسا ليد الجدة وهى تضع الحب ، وراحا يلتقطان ، ويزقزقان كأنهما يشكرانها فاندهشت الفتاة لهذا المشهد ، فقامت لتقترب من العجوز والشباك والعصفورين ، فطارا معاً ، فظنت أنها أزعجتهما ..

– لا لم ينزعجا منك .. سيعودان .. هكذا قالت الجدة لشمس ، وتتبعت عيونهما مسار العصفورين حتى وقفا على باب عش فى شجرة بحديقة البيت ، وراحا يفرغان ما بفمهما داخل أفواه الصغار المفتوحة .. وبعد لحظة عادا مرة ثانية ، وحطا بجوار يد العجوز .. فتشجعت شمس وحملت بعض الحبوب وراحت تنثرها أمامهما فلم ينزعجا ، وراحا يلتقطانها ، ويزقزقان .. ومن بين ضباب اندهاشتها سألت شمس جدتها :

– هذا أغرب ما رأيت.. كيف تألفك العصافيرهكذا، ولا تفرمنك ؟!

- يا ابنتى .. للعصافير بعض الإدراك ، وتعرف من يحنو عليها ، وتألف من يمد لها يده بالطعام والشراب .. وليست العصافير فقط ، بل كل الحيوانات ..
- حتى المتوحشة ياجدتي ؟!!
- حتى المتوحشة ياابنتي.. ففى بعض البلاد الإفريقية ، اعتاد بعض القرويين أن يخرجوا ليلاً ليقدموا قطع اللحم للضباع ، وشيئاً فشيئاً ألفتهم الضباع المتوحشة المفترسة ، حتى أصبحت تترصد حضور هؤلاء الرجال ، وتلتف حولهم تلتقط اللحوم من أيديهم .. ثم تستلقي بجوارهم !!
- هذا مرعب !! يقتربون من الضباع وتقترب منهم حتى تنام بجوارهم ؟!!
- نعم.. كل الكائنات تريد السلام ، وحين تجده تؤمن به وتثق فيمن يقدمه لها، والطعام بالنسبة لها ياابنتي هو السلام وعدم المطاردة والاقتناص .

ومع حالة الاندهاش من هذه الكائنات التى نجحت الجدة العجوز فى نقل الصبية شمس إليها ، وخففت عنها بعض أحزانها ، وشاركتها العصافير فى تصرفها هذا .. تذكرت الفتاة فجأة – وهى لم تكن تنس !!! – أن لكل هذه العصافير الصغيرة آباء تطعمها وتحميها .. إلا هى .. فبادرت قائلة كما لو كانت قد اكتشفت سراً :

- لكن يا جدتى .. كل الحيوانات لها آباء ، تولد فى أحضانها ، وتحتمي بها .. إلا .. قاطعتها جدتها في الحديث :
- لا .. ليست كل الحيوانات .. فعلى الرغم من أن بعض الطيور ترقد ذكورها لا إناثها على البيض حتى يفقس .. فإن كائنات أخرى تولد بدون آباء !!

أو لا توجد هذه الكائنات الصغيرة إلا بعد التخلص من آبائها !! والمثل هنا هو بعض أنواع العنكبوت .. فالذكر ليس إلا أداة للتلاقح .. وبمجرد أن يقوم بعملية التلقيح لأنثى العنكبوت ، تلتفت إليه الأنثى وتفترسه وتلتهمه !!

- ياستار !! ما هذا التوحش ؟! ومن أين تعرفين كل هذه المعلومات ياجدتي ؟ .. من أين لك هذا ؟؟؟
- أنا درست يابنتي وحصلت على شهادة (الابتدائية القديمة) التي تعادل حاليا شهادة الثانوية العامة وحفظت القرآن في (الكتاب) وأنا في سن مبكرة ومازلت أقرأ وأثقف نفسي وأشاهد البرامج التي تسلط الضوء على حياة الحيوانات وعالم البحار والطيور وغيرها ، وهذه هى الحياة .. لها طبيعتها وطقوسها وكل كائن له ظروفه .. ونحن البشر جزء من هذه الحياة ، ولا نستطيع أن نقاومها أو أن نعدل مسارها .. وكل ما نستطيعه هو أن نعيشها كما أمرنا الله !!
- ولكن ياجدتي لماذا يفعل كل إنسان ما يشاء ، حتى لو كان يلحق الضرر بالبسطاء والأبرياء ؟!
- تلمحين مرة أخرى إلى تصرفات أبيك !! إنها يا شمس تصرفات غريبة ومنفرة وترتدي ثوب الشرع والعرف .. لكنها غير إنسانية ؛ لأنها تظلم الأطفال ، والفتيات القاصرات .
- يا جدتي .. هو أبي مهما كان !!!
- نعم يا ابنتي .. وأنا أحبه ،وأعرفه منذ طفولته ولم يكن سيئاً فى سلوكه منذ صغره .. حتى بدأ فى إنجاب البنات ، ونظر لإخوته فوجدهم ينجبون الذكور ، فراح خوفه من أن يرث ثروته الطائلة أبناء أخوته حين يموت .. وكان كذلك يتمنى أن يسلم أعماله وتجارته فى العقارات والأراضى وغيرها لولد

من صلبه ، لا لصبيانه الكثيرين الذين يعملون معه .. لكن الإنجاب إرادة الله .. سواء للبنات أو الأولاد .

- هذا ما لم يقتنع به أبوك .. وتطورت أحلامه فى أن ينجب ذكراً إلى ارتكاب سلوك غير إنسانى ، ساعدته عليه ثروته .. لقد اعتاد أن يبحث عن الفتيات الصغيرات من الأسر الفقيرة ، فى القرى والنجوع والكفور ، ويدفع الأموال لآبائهن وأسرهن ، ويتزوجهن وهن فى سنك هذا ياشمس بحجة أن الزواج شرع الله ، وينخدع أهالي الفتيات بمظهره ولحيته وجلبابه القصير ، فهو يقوم بدور الواعظ والداعية الإسلامي في المساجد والمناسبات ، فينبهر الجهلاء والفقراء به ، وينخدعون ويتسابقون في عرض بناتهم الصغيرات عليه ، لينالوا بركة الشيخ ويستفيدوا من البيعة المباركة ..
- لا .. يا جدتى .. أرجوك .. لا أظن أبى هكذا .. لا أستوعب هذا الكلام !!

- لم أكذب عليك يوماً .. وعلى الرغم من ذلك ستتأكدين بنفسك من أفاعيل أبيك ، ومتاجرته بالدين !!!

الصائغ يكشف الحقيقة

منزل شمس يقع بحي الجامعة بمدينة الفيوم ، هدوء وأشجار وشوارع نظيفة ، حالة تصبغ السكينة على المقيمين فيه ، لكن هذه السكينة بالنسبة لشمس نوع من القطيعة مع غالبية الناس ممن تكتظ بهم الأسواق والشوارع والحارات والميادين ، من بقالين وبائعي خضروات وعمال نظافة وقهوجية وبائعي أقمشة وماسحي أحذية وجزارين وبائعي القصب ، وموظفين رائحين غادين إلى أعمالهم ، ومنادي سيارات ، وعربجية حناطير وبائعي زهور وسياح يترددون على السواقي بالمدينة ويقع أيضا فى طريقهم إلى سائر معالمها الأخرى ـ معالم الفيوم ـ كوادي الريان وبحيرة قارون وقصر قارون وعين السيليين ووادى الحيتان .

والجدة العجوز تعي كل الوعي أن شمس لابد أن تعيش الحياة الطبيعية ، لا أن تترعرع فى صوبة مكيفة الهواء منعزلة عن العالم .. فحين أقبل عليها السائق الخاص لشمس عارضاً تجهيز السيارة للانطلاق بهما ، بادرت العجوز بالرد عليه قبل شمس :

– لا .. لا نريد السيارة .. سوف نتجول على الأقدام حتى نصل إلى السوق .. وعلى بعد عشرات الأمتار من المنزل بدأت الحيوية تدب فى الشوارع خاصة مع انكسار حدة شمس النهار .. وهذا هو بائع العرقسوس ، يطلق إيقاعاته الخاصة ، فبحلقت فيه شمس ، وبادرت العجوز بطلب " اتنين عرقسوس " .. وهما يشربان فاجأهما سؤال البائع :

– أليست هذه الآنسة شمس بنت حسن بيك منصور ؟!

ألجمت الدهشة شمس من معرفة البائع لها ، فدفعت الجدة للرجل جنيهين ، ثم انطلقتا انطلاقاً حراً تنظران ذات اليمين وذات اليسار لمحلات الأقمشة والصاغة حتى توقفت شمس تنظر إلى مشغولات ذهبية فى محل بعينه ، فدخلتا إليه ، فإذا بالرجل يرحب

بالعجوز باسمها..ويقول :
– أظن هذه ابنتنا شمس ؟! سأختار لها أجمل ما لدي .. إنها عزيزة علينا جداً
ردت العجوز باستغراب :
– عزيزة عليكم وأنت لم ترها من قبل ؟!
– لم أرها هى بل أرى والدها عدة مرات ، وهو (زبون) دائم لنا ، وآخر مرة جاءنا كانت الأمس، ثم همس للعجوز بصوت منخفض : لشراء شبكة زوجته الجديدة !!!
من بين اندهاشة حزينة سألته شمس بعد سماع همسه :
– أكانت له زوجة قديمة حتى يكون له زوجة جديدة ؟!!
رد الصائغ :
– يووووه ... هذه الزوجة رقم عشرين وفى الثانية عشرة من العمر
ردت شمس :
– لا أفهم .. الثانية عشرة .. .. ماذا تقصد ؟!
رد الصائغ و العجوز منشغلة بتقليب بعض الأساور والسلاسل الذهبية :
– لقد تزوج من قبل تسع عشرة فتاة دون العشرين .. وهذه هى الفتاة العشرون التى سيتزوجها خلال أيام .
شمس : إن الشرع يبيح أربع زوجات فقط ، وهكذا سمعت من المدرسين في حصة التربية الدينية، فكيف يتزوج عشرين ؟! ومن الذي يسمح له بالزواج من ابنته الصغيرة وهو فى الستين من عمره؟!
الصائغ :
– يتزوجها ثم يطلقها بعد مدة قصيرة ، ولا يجمع إلا أربعاً .. هن اللائى انجبن له .. لكن كل إنجابه بنات .. أما من يسمحون له

بالزواج من بناتهم فهم الآباء الفقراء المعوزون ، والمخدوعون بلحيته وجلبابه القصير ، ودروسه الدينية في المساجد عن العفة بالختان ، وتحصين البنت بالزواج ، واتباع سنة الرسول الكريم بالتعدد في الزواج .

ـ الفقر ياابنتي يدفع الناس لتصديق هؤلاء الذين يتاجرون بالدين ، ويتاسبقون على بيع بناتهم لهم للحصول على المال . .

شمس :

– سمعت من جدتي عن أثرياء من الأقطار الشقيقة يأتون إلى مصر ويعودون إلى بلادهم ، ومعهم زوجات مصريات من الأسر الفقيرة فى أعمار أبنائهم أو أحفادهم .

رد الصائغ :

– وهم يرون الآن أن تزويج بناتهم لرجل من مصر أفضل وأهون من تزويجهن خارج مصر .. على الرغم من أنهم يعرفون كذلك أنه زواج مؤقت قد لا يدوم سوى عدة أشهر ، وتعود بناتهم إليهم بعدها ، وللأسف ياابنتي بعض الفتيات يسلكن سلوكا منحرفا بعد هذه التجربة القاسية والفاشلة ، من أجل أن تعيش !!!

مع العبارات الأخيرة ، بدا أن شمس منصرفة الذهن عن السماع حتى توقف الرجل وصمت فترة .. فخرج منها سؤال استجداء بصوت حزين يسأل :

– هذه جريمة جديدة يرتكبها أبي إذن .. هل تستطيع مساعدتنا فى الحصول على عنوان الضحية – أقصد العروس – الجديدة ؟!!

ارتسم الخوف على وجه الصائغ وهو يتهته :

– العنوان .. العنوان ..وماذا يفيدك معرفة العنوان ؟؟ إنه هنا فى فاتورة الذهب الذي اشتراه باسم العروس.. هو يبعد عن المدينة بخمسين كيلو متراً،فى أحد النجوع..اسمه .. اسمه(نجع ماضي).

شمس تبحث عن الحل

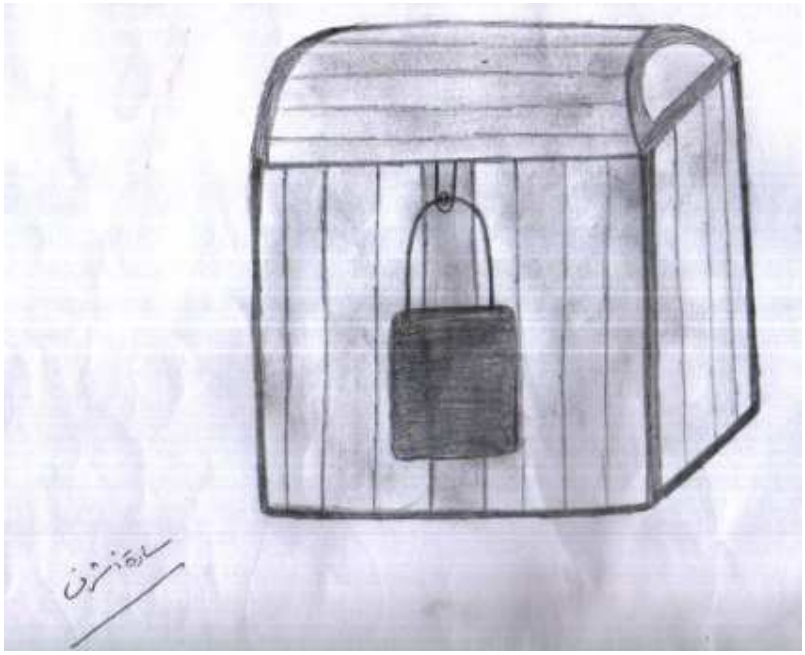

ما يسستدعي الفرح فى حياتنا أكثر مما يجلب الأحزان ، فإذا كنا نفقد كل يوماً شخصا نحبه ، فنحن نستقبل أمامه عدة أطفال جدد تستمر بهم الحياة وتزدهر .. وترتقي حياة البشرية ويتضخم سكان العالم من عدة آلاف لعدة ملايين لعدة مليارات ، حتى وصل إلى سبعة مليارات إنسان ، ولا أحد يترك وراءه فراغاً ، بل ربما احتل فراغه اثنان أو ثلاثة !! وإذا كنا نقع من حين لآخر فريسة مرض ما : ضعف أو اشتد ، كالسرطان وفقدان الذاكرة (الزهايمر) والإيدز والإنفلونزا بسائر أشكالها ، فإن الاكتشافات العلمية تتغلب فى النهاية عليه .. ثم نتحرر منه ، كما تحررت البشرية من العبودية ومن الاستعمار ، ومن العنصرية ..

هذه المعانى كلها ترددت على أسماع شمس وهى تستمع إلى إذاعة (صوت العرب) وهى تقدم برنامجاً يستعرض الكتب ومؤلفيها ، وخاصة ممن تعرضوا لابتلاءات المرض وتغلبوا عليه ، وكأن الرسالة موجهة إليها فى هذا الصباح من أيام أجازة العام الدراسى.

ازدادت شهية شمس وهى تتناول إفطارها، فأكلت كل الأصناف في وجبة الإفطار الذى أعدته لها الخادمة على غير عادتها منذ رحيل أمها .. والعجوز تتأملها فى سعادة .. بادرتها شمس :

– موعدنا اليوم للذهاب إلى نجع ماضي يا جدتى .. أليس كذلك ؟! هل أخبرت السائق ؟!

ولنحمل معنا كثيراً من لعب الأطفال : عرائس وزمامير وصفارات وطائرات وسيارات وبلالين لنقدمها للأطفال هناك .

اندهشت العجوز :

– بلالين وزمامير؟! الأطفال هناك يحتاجون لأشياء أخرى غير اللعب .. يحتاجون إلى طعام وشراب وملابس وأحذية وعلاج وتعليم ، بل وإلى منازل صحية يقيمون فيها ، وإلى مياه شرب نقية

وإلى حمامات وصرف صحي و ... قاطعتها شمس مندهشة :
– ألا توجد لديهم كل هذه الأشياء ؟! فكيف يعيشون إذن ؟!
– يعيشون على ما توفره لهم الطبيعة .. اللبن والزبد من أغنامهم وماعزهم .. والبيض من دجاجاتهم التى يربونها .. ويقيمون فى عشش وبيوت من الطوب اللبن (الطين) المسقوفة بالجريد ، وأخصاص من الغاب ، وتتسرب إليهم الأمطار شتاء والشمس صيفاً وهم نيام !!

سيطرت علامات الشجن على ملامح شمس وصرخت :
– هذه ليست حياة طبيعية .. لابد أنهم يعيشون فى ظروف نفسية تعيسة جداً !!
– هذه هى حياتهم منذ قرون ، وربما منذ آلاف السنين .. ويتكيفون معها ، لأنهم لا يعرفون غيرها .. ولا تصيبهم أمراض نفسية لأنهم أميل إلى الرضا بظروفهم هذه .. وحتى إذا أصيب منهم أحد بمشكلة نفسية ظنوها بسبب (السحر) وعمل الساحرات !!
– إذن نحمل لهم كل ما نستطيع من أغذية ومن ملابس ، وليس لعب أطفال !!
– تمام يا ابنتى .. لكن علينا اليوم أن نذهب قبل النجع – إلى آخر جلسة للعلاج الكيماوي الذى تحصلين عليه فى مستشفى السرطان.
– ياه .. علاج !! علاج !! أنا (زهقت)لا أريد علاجاً .. لقد شفيت !!
– نعم يا حبيبتى أنت شفيت .. واجتزت محنة المرض الخبيث .. وليس أمامك سوى هذه الجلسة فقط .. ولا جلسات ، بعد اليوم .
– أيعود شعرى للنمو بعدها ياجدتي ؟

– سيعود خلال أسابيع وشهور قليلة .. وسوف نرى مرة أخرى خصلاتك السوداء الكثيفة ، تتدلى على كتفيك .
– وحين أنام أتركها مفكوكة ، واتقلب على الفراش ، فتغطي وجهي .. و تضايقنى !!
– شأشتري لك التوك الكثيرة الملونة والأطواق والبنس وتلمين بها شعرك الأسود الثقيل الجميل المنساب كالحرير !!!

حفل أوبريت (أنت يادوب سرطان)

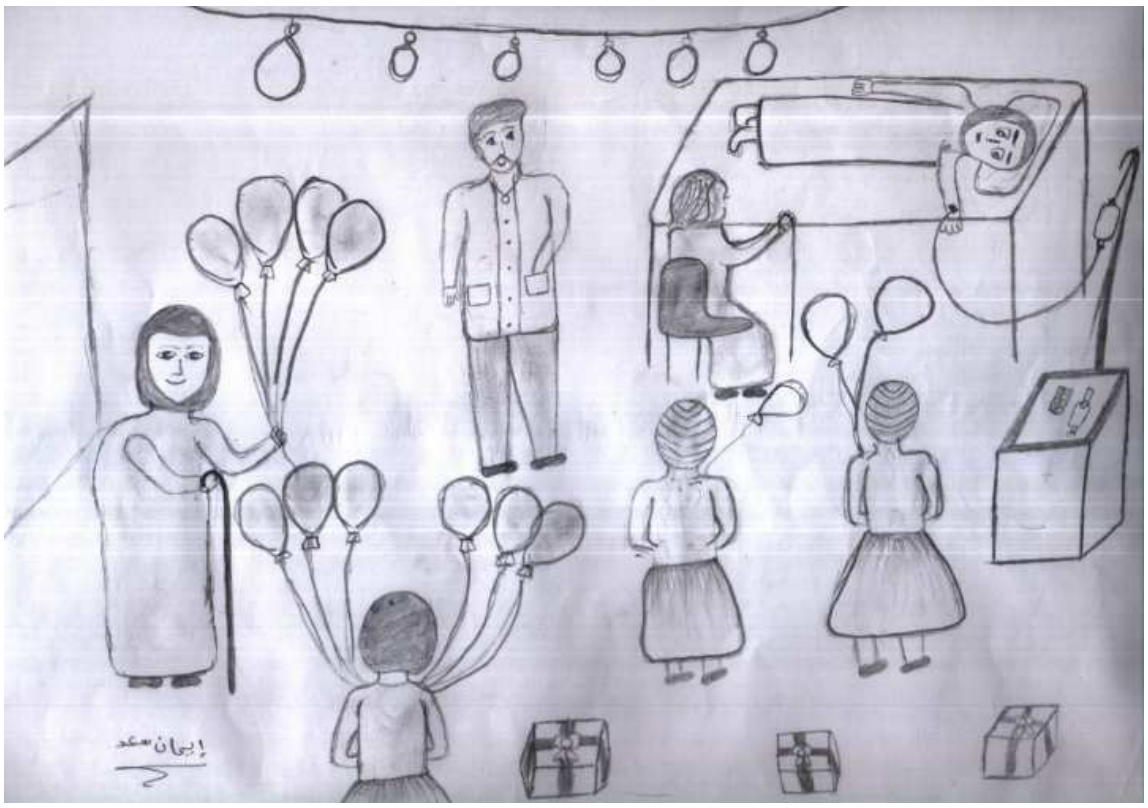

ظن أطفال مستشفى السرطان ، والأطباء أن هذه هى الزيارة الأخيرة لشمس وجدتها ، وأن هذا الكم الكبير من لعب الأطفال التى قدمتها للأطفال المرضى سيكون آخر هدية كبيرة وقيمة يتلقونها .. لكن شمس نفت كل ظنونهم وقالت لهم :

– هذه حقاً الزيارة الأخيرة لي كمريضة ، لكنها لن تكون الأخيرة لي كإنسانة ، كمواطنة ، كطفلة أو " بنت " تعرف أن التشجيع يقوي الإرادة ، وأن الإرادة جزء من العلاج .

واصلت شمس حديثها إلى أطفال المستشفى :

– إن كل ما يقدمه لي أبي من أموال كمصروف يومي ومدخرات وضعها لي فى البنوك لا قيمة لها ، ولا متعة فى امتلاكها إذا كان هناك من يتألم منكم ومن غيركم ، ولا تساعد فى تخفيف ألمه .

كانت لكلمات شمس وقع مؤثر على الأطفال ، بل وعلى الأطباء والممرضات والإداريين والعمال بالمستشفى ، فنسوا جميعا أنه لقاء للوداع ، وحولوه إلى (حفل استقبال) ، وتحمس عدد منهم ، وحلقوا في دائرة حول شمس

وبدأوا فى الغناء :

شايفينك ضيف منفوخ وعنيد
وبتدخل بيتنا بدون مواعيد
لو سمك يسكن كل وريد
أنا كلي عزيمة وكلي إيمان
أما أنت يا دوب اسمك سرطان

ثم تغنى شمس :

أنا عمرى ما خفت فى يوم من موت
مع أني بحارب فى السرطان
أحلامي بتطرح فرحة وتوت

وبشخبط ع الحزن بألوان
أنا أعظم خلق الله انسان
وملايكة ربى بتسجد ليا فى كل مكان
أما أنت يا دوب اسمك سرطان

تغني طفلة أخرى :

لو ماسك سبحة وعامل شيخ
هنقابل خبثك بالتوبيخ
العلم بيوصل للمريخ
وهانقضي عليك ياخبيث ياجبان
أصل انت يادوب اسمك سرطان

يغني طفل آخر :

أنا في المستشفى البلياتشو
وساعات أراجوز
وبمثل دور فلاح وعجوز
وبغني واقلد صوت فيروز
ومااحبش أشوف واحد زعلان
ولايلوي البوز
أنا جان عبقري عالم فنان
أما انت يادوب اسمك سرطان

يغني طفل آخر :

ياسرطان هاتهد في جسمي
هاحمد ربي هايحفظ اسمي
شعري هايطلع لو وقعته
ع الجدران راح يفضل رسمي
طول ماأنا عايش هافضل أغني

وانت هاتبقى في كان ياما كان

ويغني جميع الأطفال :

ياأمهاتنا اعملوا معروف

ماتبدلوش فينا الأمل بالخوف

أصل الشفا معروف

مش بالعياط والحزن

نص الشفا محتاج لبسمة وحضن

نجع ماضي ومملكة فارس

وسط هذه الحالة من السعادة والتحدي للمرض بالغناء راحت الجدة العجوز تمسك بيد شمس لتسحبها من بين زملائها ، حتى تتجها إلى نجع ماضى فى وقت مناسب من النهار ، قبل المغيب ، فهذه النجوع تتحول إلى متاهة من الظلام والوحشة وعواء الذئاب وزحف الثعابين والأفاعي ، ونباح الكلاب ، بمجرد أن يرخي الليل سدوله على الحقول .. لا كهرباء ، لا أضواء من أي نوع إلا ضوء القمر مع اقتراب اكتماله .. والغريب أن حالة السكون فى هذه النجوع لا أثر لها ليلاً بل السكون غالباً فى النهار .. لأن معركة مهولة تدور بين الخصمين اللدودين : الذئاب والكلاب وكل من الفصيلتين يتحرك فى جماعات ، فتحاول الذئاب أن تهجم على الأخصاص والأكواخ والبيوت لاختطاف معزة أو خروف أو دجاجة ، بينما تترصد لها الكلاب وتتصدى لمحاولتها ، وتجري الملاحم بالعواء والنباح ، وقد يحدث التلاحم الجسدي ـ العض والنهش ـ إذا وقع ذئب أو أكثر بين مخالب الكلاب وأنيابها !!

والعجوز تعرف كل هذا النمط من حياة النجوع ، ولذا أرادت أن تتحرك من المستشفى بصحبة شمس والسائق فى وقت مناسب ، لكن الأطفال تنبهوا لحركاتها !!

وهبوا فى نفس واحد :

– أين الحدوتة يا جدة؟! نريد حدوتة كل زيارة .. لن تذهبى قبل أن تحكى لنا حدوته جديدة !!

– حاضر يا أطفالي الطيبين !!

نحن اليوم سنتوجه – فى مهمة خاصة – إلى نجع ماضي على بعد خمسين كيلو من هنا .. هل تعرفون نجع ماضي ، ولم سمى بهذا الاسم ؟؟

تداخلت أصوات الأطفال :

– لا
– نعم
– لا نعرفه
– نعرفه
قالت : هذا النجع يا أبنائى يقطن فيه عدة مئات من المواطنين .. لا تعرف لهم حصراً محدداً ، لأن الكثيرين منهم " ساقطو قيد " .. أى ليست لهم شهادات ميلاد ولا سجلات فى الدولة .. فكأنهم – على المستوى الرسمى – غير موجودين .. ولا يستطيعون استخراج رقم قومى (بطاقة شخصية) أو بطاقة هوية ، ولا يوثقون زواجهم لدى المأذون الشرعى أو المحكمة .
سألها أحد الأطفال :
– ماذا يحدث لو أن أحدهم ارتكب جريمة : سرقة ، قتل ، نصب ، اغتصاب ، عنف أو ضرب امرأة مثلاً ؟!
ابتسمت وهى ترد :
– الجملة الأخيرة هذه مشكلة كبيرة يا أبنائى فى مثل هذه النجوع والمجتمعات الريفية والهامشية والمهملة أو المظلومة .. وهو يمارسون العنف ضد المرأة : طفلة ، وفتاة ، وناضجة ، ومتزوجة ، ومطلقة ، وأماً .. لكن لا يدركون أنهم يؤذونها فى كثير من الأحيان .. تقاليدهم تدفعهم للظن بأنهم يفعلون بها خيراً !!
فمثلا الختان .. ختان الفتيات يحدث بشكل يومى ومنتظم .. فكأن الدماء تسيل كل يوم هناك ، وبعض الفتيات تتعرض للنزف ، وقد تموت لهذا السبب .. وهم يظنون أنهم بالختان يعصمونها من الزلل فى براثن الرذيلة !! وفى الوقت نفسه – يا أبنائى – يمارسون هم جريمة أخرى ضد هذه الفتيات .. إنه نوع من التجارة وجلب المال ، بتزويجهن فى سن مبكرة من رجال عواجيز أثرياء يصحبونهم

خارج هذه البيئة التى تربت البنت فيها ، إلى مدن أخرى بعيدة ، سواء داخل الحدود أو خارجها .. فتحس الفتاة ، وهى فى هذه السن المبكرة دون سن الزواج الرسمي بالغربة والاستعباد .. و .. و .. لم تسمعوا منى حكاية ماضي !!

هتف الأطفال :

– ماضي .. ماضي .. ماضي .. نريد ماضي !!

فبدأت الجدة تحكي كان ياما كان :

– يقال في الحواديت والأساطير إن محافظة الفيوم ، هذه المحافظة الجميلة التى يسميها المؤرخ جمال حمدان (مصر الصغرى) .. كانت تضم فى الماضى ، فى الزمن البعيد مملكتين اثنتين : الأولى مملكة فارس ، والثانية مملكة ماضى .. وكانت مملكة فارس قريبة هنا من مدينة الفيوم ، بل تقع فى ضاحيتها ، وتحمل الآن أطلالها اسم (كيمان فارس) ، وبها بقايا قديمة من الأبنية المنهارة .. أما سبب انهيارها فهو ما كان يحدث من صراعات متصلة بينها وبين مملكة ماضي ، وكل مملكة لديها قدرات خارقة فى السحر وإيقاع الأذى بالأخرى ..

وكل مملكة كانت تستعرض قدراتها فى هذا المجال .. فتقوم مملكة فارس مثلا بتحويل الرمال والحجاره والطوب المحيط بماضى إلى أسود وذئاب وعقارب تخرج على الناس وتحاول التهامهم .. طبعا لا تلتهمهم فعلا ، بل هو مجرد إيماء وتخويف .. فترد مدينة ماضى بتسليط الجراد على مزروعات المملكة الأخرى والقمل والصراصير والخنافس على البشر حتى يقتحم دورهم وحجرات نومهم وملابسهم ومياههم !!

ومرة أخرى تسلط ماضى على فارس الرياح والأعاصير ، فترد فارس بتحويل مياه بحر يوسف إلى فيضانات تغرق كل شئ !!

ويقال إن بعض فترات السلام والود كانت تسود بين المملكتين ، ويتم تبادل المنافع والمصالح فتزدهر الحياة .. وقد نجحتا فى إقامة خط أوماسورة تحت الأرض تربط بينهما ، فيتم من خلاله إرسال كل أنواع السوائل يصبها طرف من ناحيته لتصل إلى الطرف الآخر بدون أن ينقص منها جرام : فيتبادلون فيما بينهم زيت الزيتون والذرة وأنواع العصائر بهذه الطريقة !!

أما كيف كان خراب المدينتين أو المملكتين ، فيقال إن الله قد انتقم منهما لسحرهما فوقع زلزال ضخم دمر المدينتين فأصبحتا مجرد تاريخ وآثار منهارة !!

باحثة البادية الصغيرة

قبل أن تصدح المآذن بالدعوة إلى صلاة الظهر كانت سيارة شمس قد اقتربت من نجع ماضى برفقة جدتها والسائق .. لم تعد سوى خمسة كيلومترات ، وهاهم أولاً يمرون الآن على سوق لمنتجات الألبان والخضروات والفواكه والطيور ، فاقترحت الفتاة على جدتها التوقف لشراء المزيد من السلع الغذائية التى ستقدمها إلى الناس فى النجع .. فكان لها ما أرادت ، وقد حمل البائعون إلى سيارتها عدة أقفاص من العنب الفيومي ، والمانجو البكساوي – المنسوب لقرية أبو كساه – وزلعة مليئة بالزبد البقري .. وبينما تنهمك شمس فى إحصاء ما اشترت والإشراف على وضعه بالسيارة ، كان الصمت يغطي وجه العجوز ، ويرسم ما يشبه غلالة مضيئة على عينيها وثغرها .. فالتفت إليها شمس مداعبة :

– إلى أين ذهبت يا جدتى وفيم تشردين ؟! هل تذكرت حباً قديماً قد هجرك ؟ !!

ردت العجوز ببسمة واسعة :

– يا شمس لم يكن لي حب قديم حتى يهجرني الحب الجديد !! وإذا كان هناك من حب قديم وجديد فهو أنت يا ابنتي .. أنت إنسانة وبطلة .. قهرت المرض ، وتتفوقين فى دراستك ، وتحسين بآلام الآخرين ، وتسعين لرفع الظلم عنهم ، وتتصرفين كما لو كنت فوق سنك هذه بكثير .. أنا سعيدة بك وأراك الآن – فى لحظات الصمت التى رأيتيها على وجهي – أراك بعين المستقبل عالمة ، أديبة ، مثقفة ، كواحدة من رائدات العمل الاجتماعي والثقافي التي شهدتها هذه المناطق فى بدايات القرن العشرين ..

ردت شمس مندهشة :

– عالمة وأديبة ومثقفة ورائدة فى العمل الاجتماعي هنا ، فى هذه المناطق الريفية البسيطة؟!

– نعم يا بنيتى .. إنها " ملك حفني ناصف " التى أقامت وتزوجت هنا رجلا من أكبر عائلات الباسل ، وسلكت طريق أبيها فى هذه المجالات : أبوها حفني ناصف الأديب والشاعر الكبير وأطلقوا عليها لقب " باحثة البادية " لأنها كانت تهتم بالنجوع وتعلمهم النظافة وكانت حريصة على تثقيف المرأة وتعليمها فى الفيوم ، وهي من الثائرات ضد عادات المجتمع في تهميش المرأة والمطالبات بحريتها وفك قيدها مثل نبوية موسى وهدى شعراوي وغيرهن كثيرات .

– يا ليتنى مثلها يا جدتي ..

– ستكونين يا ابنتى .. ونتمنى أن يساعدك المجتمع كله فى طموحك للدفاع عن المظلومين ورعايتهم، وخاصة النساء والأطفال.

– وكيف سيساعدنى المجتمع ؟إننى أسعى لأن أساعد الناس لا أنتظر أن يساعدونى هم !!

– المجتمع الذى أقصده ياشمس هو كل مؤسسات الدولة : رئاسة الدولة ، مجلس الوزراء ، مجلس النواب ، النقابات ، الصحافة والإعلام ، الجامعات ، المؤسسات والجمعيات الأهلية .. هذه هى الدولة التى تقوم على رعاية الشعب وخدمته ومساعدة النوابغ منهم.

– وكيف ستساعدني ؟!

– أنت مثلا تتألمين كثيراً حين ترين المرأة مظلومة مغلوبة على أمرها ، يعذبونها تحت دعوى الختان من أجل الشرف والعفة ، ويتاجرون بها فيزوجونها لمن لا ترغب فيه من أجل جني المال ، وقد يزوجونها وهى قاصر لمن هم فى سن آبائها وأجدادها – كهذه الحالة التي نسعى الآن لمعالجتها – وكذلك ما تتعرض له من اغتصاب وعنف وضرب وإيذاء مادي ومعنوي على يد بعض الرجال الجهلاء والمتوحشين ..

– فهمت ياجدتي أن هذه الحالات لا أستطيع إيقافها وحدي .. إن القانون هو الحل .. ولذا ينبغي أن تبادر الحكومة ومجلس النواب لإصدار قوانين تحمي المرأة من العنف وتجرم زواج القاصرات .
– ما شاء الله يا بُنيتى .. ألم أقل لك إنك سابقة لسنك .. كلامك صحيح .. نحتاج إلى قوانين يشرعها مجلس النواب لمنع كل أنواع العنف ضد الفتيات ، والنساء .
– سأبدأ بالحديث مع صديقاتى وزميلاتى وأساتذتى فى المدرسة حول هذا الموضوع .. و .. وكذلك سأكتب عنه فى صفحتي على الفيس بوك ، أطالب مجلس النواب بسن هذه القوانين .
مع الاستطراد فى هذا الحديث لم تفق الجدة وحفيدتها إلا على صوت السائق :
– سنقف هنا .. هذه نهاية الطريق المعبد (الممهد للسير) ، ولن نستطيع التحرك بالسيارة أكثر .. كل الطريق القادم ممرات ومدقَّات بين الحقول وعلى أطراف الصحراء ، لا نستطيع أن تسير فيها السيارة .
بدت الصدمة على وجه الفتاة :
– وكيف سنصل إذن إلى النجع؟! والناس هناك كيف يصلون إليه؟!
رد السائق :
– لا تنزعجي يا آنسة شمس .. الناس هنا اعتادوا هذه الحياة التى لن نعيشها نحن إلا يوماً واحداً .. سوف نترك السيارة هنا بجوار هذا المنزل ، ثم نحمل أشياء على عربة كارو ، وتنقلنا إلى النجع .. ونعود من هناك بالطريقة نفسها .

يوم شاق فىْ نجع ماضي

الناس فى النجع يعرفون بعضهم بالأسماء ، والصغير منهم ينادي كل من هو فى سن أبيه بالعم ، وكل من هى فى سن الأم بالخالة .. وبمجرد دخول العربة الكارو بمن تحمل وما تحمل إلى حدود النجع ، كان كل الأطفال يعرفون " منزل " حسنين أبو دياب الذى تقصده شمس ومن معها .. والأطفال لم يكتفوا بوصف المكان للعربجي – سائق العربة الكارو – بل تجمعوا حول العربة وساروا فى ركابها حفاة !!

لقد آذت حالتهم المزرية عيون شمس وتبكي في نفسها قائلة :

إنهم أشباه عرايا ، ثيابهم تكشف من أجسادهم أكثر مما تستر ، هى ممزقة ومرقعة ولا لون لها.. ويتفقون جميعا أيضا فى الحفاء .. لم تبد شمس مشاعر الحزن على هؤلاء الأطفال – أبناء جيلها – بل كتمت هذه المشاعر ، ويدها تمتد تلقائياً إلى ما تحمل من فواكه فى الأقفاص ، وراحت تقدم لكل منهم بسخاء ، وهم يلتهمون بشغف حتى إنهم كانوا يتناولون المانجو بقشرها !!

لم تنفذ محتويات الأقفاص وحمولة العربة تماماً حين وصولهم إلى " منزل " حسنين أبو دياب .. انه ليس بمنزل كما تعودت ورأت ، إنه أقرب إلى الكوخ الطيني المعروش بأغصان الشجر وقش القمح وعيدان الذرة .

بمجرد التوقف أمام الكوخ – المنزل – خرج إلى العربة وإلى الضيوف " سرب " من الأطفال أكبرهم فتاة فى الثالثة عشرة .. وحينما بدأ السائق والعربجى فى إنزال الهدية الثمينة وادخالها للبيت كان أهل البيت فى حالة ذهول من المفاجأة !! وأُطلقت زوجة حسنين زغرودة متصلة ، بينما انطلقت عبارات الترحيب الحار من حسنين ، وهو يفسح لهم مكانا للجلوس على الحصيرة .

قال لهم مبتسماً : (خير اللهم اجعله خيرا) .. وبما يعني التساؤل

عن سبب الزيارة وهوية الزائرين :
– إحنا زارنا النبى .. شرفتم نجع ماضى وما حوله من النجوع .. أهلا وسهلاً .. أرادت شمس الاقتضاب والحسم :
– جئنا من أجلكم .. وبالذات من أجل ابنتك " سعديه " العروسة الصغيرة ..
أشار الرجل إلى الفتاة الواقفة ابنة الثالثة عشرة :
– هذه هى .. إنها ليست صغيرة .. عمرها ثلاثة عشر عاماً .. عقبالك !!
– إنها طفلة فى مثل سنى تقريبا .. فكيف تزوجها ؟!
– نعم .. كيف أزوجها ؟! وماذا سأفعل بها إذن ؟!
– تربيها وتعلمها وتترك لها الاختيار بعد سن الثامنة عشرة أو العشرين .
– هذه تقاليدنا .. إذا بلغت البنت العاشرة فليس لها إلا الزواج .. وحظ أهلها من السماء إذا خطبها أحد الأثرياء ،أو أبناء المدينة ، كسعديه هذه .. فقد خطبها رجل ثري جداً ، ودفع لى مبلغاً من المال سأبنى به بيتى هذا ، وأعول بقية إخوتها .
– هذا الرجل الثرى عمره تجاوز الستين !!
– وليكن حتى في السبعين .. المهم أنه دفع لى مهراً كبيراً .
– هذا الرجل الثرى .. هو أبي !!
– آه .. آه .. لأجل هذا جلبت هذه الأشياء الثمينة !!
– جلبتها وجئنا نتحدث معك لمنع الزواج لا إتمامه !!
– أنت تسعين فى الشر لا فى الخير ! كيف تمنعين الزواج يا ابنتى ، خاصة أن العريس هو أبوك !!
– المبلغ الذى دفعه لك ، سأدفع لك ضعفه أو أكثر إذا شئت ، ولاتزوج ابنتك من عجوز وهي مازالت طفلة تحلم بالألعاب وتستمع

الى الحواديت و....و....و.....
(سهّم) الرجل أي لم يتكلم ، وكأن العرض أخرسه ، وقبل أن ينطق قال له السائق :
– هل هى تسعى الآن فى الشر أم فى الخير ؟!
رد ضاحكا :
– فى الخير طبعا !! فعلاً إن ابنتى صغيرة جداً .. وأنا لست ملتزماً بتقاليد النجع ولا تشغلنى هذه التقاليد .. لن أزوجها لأبيك أبداً .
– ولا لغير أبى ..
– ولا لغير أبيك ..
– واستكمالا لاتفاقنا لن تخبر أبى بشئ .. ستكمل إجراءات الزواج وتترك الباقي لي .
– كيف سأرفض ثم أوهمه باستكمال الزواج ؟!
– سأمثل أنا دور ابنتك التي لم يرها أبي ، وانما دفع ثمنها فقط وسوف أصحبه وأذهب معه بطرحة العروس بدلاً منها !!
– لا حول ولا قوة إلا بالله .. تتزوجين أباك ؟!
– يا عم حسنين .. لن أتزوجه فى الحقيقة .. انها مجرد خطة لانقاذ البنات ، والحمد لله أن ابنتك مازالت صغيرة ، أي قاصر كما يقولون ، ولن يوثق المأذون العقد .. لكن عليك تنفيذ ما أريد وإلا فسوف ننصرف.
– لا .. لا تنصرفوا سأنفذ طلبك ، وأزوجك لأبيك .. أنا لن أخسر شيئاً !!
والآن أدعوكم لحفل ختان هناك فى آخر النجع .. ختان فتيات جماعى !!
طبعاً الرجال سيجلسون أمام المنزل لتناول المشروبات وتدخين

الشيشة والنرجيلة !! والنساء يدخلن إلى غرفة الختان لمشاهدة المناسبة ، والفتيات يغنين لصديقاتهن بعد الختان .

حفل ذبح جماعي

هذا المنزل " أفخم " منازل النجع .. يضم ثلاث غرف وصالة واسعة تنتهى بفرن للخبيز ، والفرن مساحته ثلاثة أمتار مربعة ، يستغله أهل المنزل للنوم فوق سطحه فى ليالي الشتاء الباردة ، وفى النهار يشتعل دائماً بوقود من حطب القطن الجاف ، وقطع من الأخشاب المجلوبة من الصحراء وعيدان الذرة الجافة ، وهذا الفرن.. رغم ملكيته الخاصة – فإنه متاح لكل أهل النجع ،ولكل امرأة أن تخبز عجينها فيه يوماً ، والمنزل " الفخم " مبنى من الطوب اللبن ، ومسقوف بجذوع النخيل والجريد ، وفوق سطحه " منشر " لتجفيف التمر بعد قطفه من نخيله .. أما تحت سطحه ، وخاصة الغرفة اليمنى منه فتجرى هذه الأحداث الدموية :

مجموعة من الفتيات قادتها أمهاتهن إلى هذه الغرفة ، وهن ما بين التاسعة والثانية عشرة ، وبصحبتهن " الداية " أو القابلة التى تنحصر مهمتها فى النجع فى دورين أساسيين :

توليد النساء وختان الفتيات ، مع مهام هامشية أخرى كالغيبة والنميمة والوقيعة بين النسوة والوساطة في تزويج الفتيات !!

وجدت شمس وجدتها العجوز مكاناً رحباً لهما على الحصيرة الواسعة التى تغطى أرضية الغرفة ، محاطتين بالفتيات ، وقد لبسن جميعا زياً موحداً أخضر اللون وإيشاربات حمراء ..

وقد بدأت الداية (رابعة) الحديث مع البنات، بأن مستقبلهن المشرق فى عش الزوجية لابد أن يبدأ الآن بإجراء الختان ، فلا زواج بلا ختان والختان عفة .. ومن الفضيحة أن تتزوج إحداكن ويكتشف زوجها أنها غير مختنة .. حينها سيطلقها .

سرت همهمات بين الفتيات تفيد التشاؤم من كلام الداية رابعة التي تتحدث عن الطلاق ، وهي التي تخطت الخمسين من عمرها دون أن تتزوج ؛ لانشغالها بتربية أخواتها الصغيرات ؛ فتركها قطار

الزواج ، ولم تلحق به ، فعكفت على مهمتها بجانب الغناء للعرائس ليلة الحناء ؛ لتفوز ببطة للعشاء وبضع جنيهات من والد العروس .
– " أعوذ بالله من فألك ياشيخة " هكذا ردت الأمهات ؛ تعقيبا على كلمة (سيطلقها) التي قالتها رابعة أو ربيعة ـ كما ينادونها ـ فضحكت ، وأخرجت (الموسي) من جيب عباءتها ، وبدأت حالة سفك الدماء ، والتي قد تنجو منها الفتيات وقد تموت !!!
بين كل فتاة وأخرى ، تسحب الداية موسيها ، وتسنه على حديدة في جلدة طويلة تمسك طرفها فى إصبع قدمها والطرف الآخر بيدها اليسرى ، من أجل أن تشرع فى قطع جزء طبيعى من جسد كل فتاة .. مع هذه اللحظة صرخت شمس وخرجت هاربة من الغرفة وهى تردد :
– حرام .. حرام .. لا أستطيع ..لا أستطيع رؤية هذا ....

حكيمة النجع المجنونة

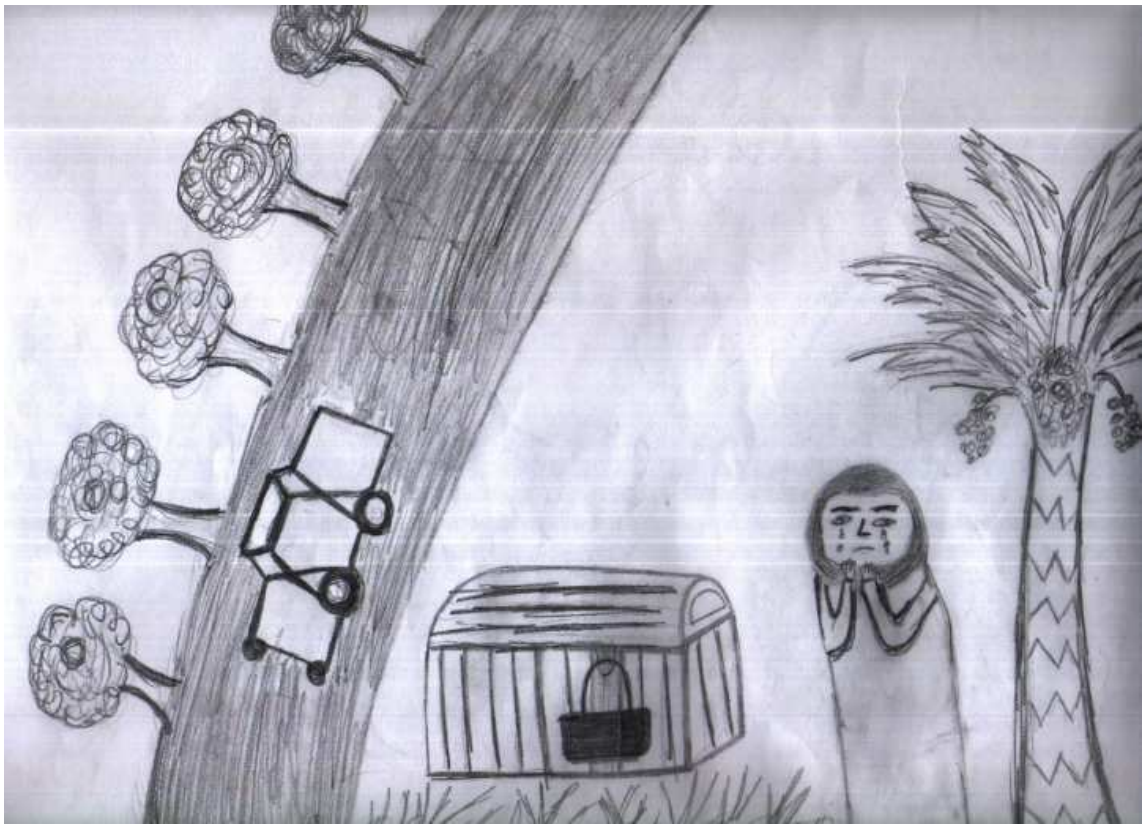

آخر مرة رأت شمس والدها ، ورآها ، كانت فى الخامسة من العمر .. حينها كانت ترجمة لإبداع الخالق : عيون عسلية واسعة برموش أثقلها الخجل فلا تكاد العيون تقوى على حملها ، وبشرة خمرية مشربة بحمرة ، وملامح منمنمة دقيقة ، وشعر أسود ناعم يتجول حول الكتفين سعياً إلى الخصر.. وكانوا يقولون عنها : إنها (لبلب فى الكلام !!) أى فصيحة ذكية لماحة معبرة عما تريد بدقة مع لثغة خفيفة فى حديثها ، تزيدها طفولة وبراءة وتأسر قلب من يستمع إليها .

كل هذه الطبيعة و الجمال البشرى لم تشفع لها لدى أبيها ، ليودها ، ويضمها دائماً إلى حضن رعايته .. وهو الآن ، هذه الليلة ليلة عرسه يريد أن يضمها !! لكنه ليس ضماً بريئاً أبوياً ، بل ضم الرجل لعروسه الطفلة !!

سارت الخطة التى وضعتها شمس والعجوز مع حسنين .. وزف حسنين شمس إلى أبيها على أنها ابنته هو ..

وقعت عين شمس من خلف طرحة زفافها المسدلة على وجهها ، وهي تسير مع والدها على امرأة تجلس بجوار شجرة النخيل ،تبدوعلى ملامحها بقايا من علامات الجمال ،لكنها ممزقة الملابس ، يتدفق الشجن والحزن من غنائها وكلامها الغير مفهوم ولكن الغريب في الأمر هو الصندوق الكبير الذي تضعه أمامها .

طلبت شمس من والدها أن يتوقفا لحظة ، ربما عرفت من غنائها وكلامها جديدا عن هذه الحياة القاسية ، وربما عرفت سرا لهذا الصندوق أيضا ، وربما يربطه علاقة بالصندوق الذي تحمله بين يديها ، ولكن كان جواب الأب :

انها امرأة مجنونة ، ويقال أنها تحرض الفتيات هنا على أسرهن وعلى أزواجهن وتتسبب في مشاكل كثيرة بين أهل القرية، ويقولون

أنها ساحرة ومن الخطر أن نتوقف أمامها ، فقد تسحرنا وتسرق منا سعادتنا ياعروستي الجميلة !!!
تمسكت شمس بمطلبها وتدللت على أبيها تدلل العروس الصغيرة فاستجاب لها على الفور.
دققت شمس النظر في محتويات الصندوق ، انها زجاجات من العطر تبدو غالية الثمن، وملابس جميلة شبابية وأكياس من الحناء وأدوات مكياج ـ تجميل ـ انه صندوق يشبه صندوق العروس الذي تشاهده في الأفلام والمسلسلات .
رفعت المرأة صوتها بالغناء والبكاء معا :
فستان زفاف لابس عروسة قماش
وضفيرة يمسح حزنها الطرحة
وأب حاضن بحر دم في شاش
وعنيه بتضرب نار من الفرحة
ياخلق هووه قطر الصبية ماجاش
بتدبحوها ليه بعين بجحة ؟؟؟!!!
نزلت كلمات المرأة كالصاعقة على رأس الأب العريس!!!
بالتأكيد أنه فهم رسالتها ،وخاصة أنه سمع من أهل النجع حكايتها وكيف وصلت لهذه الحالة بعد أن تزوجت من رجل ثري في عمر جدها ، وكانت أجمل طفلة في النجع ، فقد كانت تعتقد أنه رجل اصطحبها ليلاعبها ويشتري لها الهدايا فقط ، و ولم تعرف الحقيقة إلا بعد اغتصابها بطريقة وحشية على مسمع من أسرتها وأبيها وأعمامها الذين بدأوا في اطلاق النار فرحين برؤية العروس وهي غارقة في دمائها ، فالدماء لديهم في هذه الليلة دليل عفة البنت وطهارتها وشرفها ، فأصابها الجنون وخرجت الى الشوارع تصرخ ، وظلت على هذه الحالة ، وكلما رأت بنتا صغيرة تتزوج من عجوز

، تضع أمامها صندوق عرسها الذي احتفظت به ، وتنهار في البكاء وكأنها تحذرها من الفخ الذي وقعت فيه من قبل .

لم يحك الأب قصتها لعروسه الصغيرة التي أغرقت دموعها طرحة زفافها ، لأنها فهمت أن المرأة تقصدها ، وفهمت الرسالة ، وشرد ذهنها مع الحظ الذي أظهر لها صندوقا آخر يقول لها :

أكملي رسالتك من أجل البنات يا "باحثة البادية الصغيرة ".

صندوق الذكريات ينقذ البنات

انطلق والد شمس ، ولم يستيقظ ضميره بعد رؤية المرأة وسماع غنائها !!!

جاءت الآن لحظة انفراد الرجل العجوز بعروسه الصبية .. فكلما امتدت يده إليها أبعدتها .. وعندما يسعى لتقبيلها فتأبى وترفض بشدة ، فيعيد المحاولة مرة ومرات !!! يحاول أن يرفع طرحة الزفاف عن وجهها ، وهى مازالت محتضنة الصندوق الصغير الذى تركته لها أمها . هجم الزوج عليها يريد اقتناص أنوثتها ، ويبعد عنها الصندوق الذي أصبح بالنسبة لها لا يحتوي أشياء أبيها وذكريات أمها فقط ، بل هو خط الدفاع عن كل بنات جنسها اللاتي وقعن فريسة لأبيها وظلمه ، وجهل المجتمع !!!

فى محاولة عنيفة من الأب للسيطرة على عروسه ومحاولة تقبيلها طارت الباروكة التى ارتدتها شمس لتخفي رأسها المحرومة من الشعر بسبب السرطان ، وسقط الصندوق المغلق على الأرض ، فوقعت عينا الأب في البداية على رأسها ، فأخذ يصرخ مستنكراً :

– صلعاء ؟! صلعاء ؟! عروسة صلعا ... ؟!

لم يستطع أن يكمل اللفظة الأخيرة .. فقد اصطادت عيناه أشياء الصندوق المبعثرة على الأرض ..

صمت لحظة بألف عام .. إنه الصمت الثقيل الكارثي، الذي فقد معه قدرته على النطق ، ثم حاول بصعوبة أن ينطق كما لو كان يتحدث من تحت طبقة الأرض السابعة وهو يفتش في محتويات الصندوق :

– ما هذا ؟! صوري ؟ خطاباتي ؟ مسبحتي ؟ خاتم جدي ؟ عقد زواجي؟ وطلاقي و .. و .. من أنت ؟! وكيف حصلت على أشيائي هذه ؟

خرج صوت شمس مكتوما ممتزجا بالنشيج :
– أنا .. أنا شمس .. ابنتك .. ابنتك يا أبي .. أنا طفلتك المريضة بالسرطان ، والتي تركتها طفلة هي وأم لاذنب لها ، حتى ماتت من الحزن ، وتركتني وحدي ..أنا شمس ابنتك في سن كل الفتيات التى قتلتهن معنوياً وحرمتهن من طفولتهن بزواجك منهن مؤقتاً!!!

تحول الرجل إلى جثة هامدة ، ودخل في إغماءة طويلة ، انشغلت شمس بإفاقته منها .. وكأنها كانت لحظة الفصل والقطع بين كل حياته الماضية وحياته الجديدة القادمة !!
لمحت شمس شلالاً من الدموع على خد أبيها فاحتضنته وهى تبكي وطلبت منه أن يعود معها إلى منزله الذى كان يسكن فيه مع أمها وشهد أيام حبهما ، فهز الأب رأسه بالموافقة وقال بصوت متقطع الأنفاس : سأعود إلى حضنك وحضن أخواتك الأخريات ، ونعيش جميعاً فى بيت واحد وسأعوض كل الفتيات القاصرات فى نجع ماضي وأبني لهن مدرسة وسأبني مستشفى لعلاج مرض السرطان قريبة من النجع ووو...
قاطعت شمس حديث أبيها بصوت يتراقص من السعادة :
ـ ولتذهب معي يا أبي إلى المجلس القومي للطفولة والأمومة ، والمجلس القومي للمرأة ووزارة التضامن الاجتماعي ، والبرلمان المختص بتشريع القوانين لأطالبهم بقانون يحمي الفتيات القاصرات في النجوع والكفور والمناطق العشوائية من الزواج المبكر، وكل أنواع الجهل والعنف والتحرش ،وعمالة الأطفال ، هكذا قالت لي جدتي .. فهز الأب رأسه المنكسة من الخزي بالموافقة .

في صباح يوم سعيد أشرقت الشمس على مدينة القاهرة بسحرها وضجيجها ، وأشرقت معها ابتسامة شمس وهى تغني في سيارة والدها :

مش تاء مربوطة على الهامش
ولا لعبة تشاور وتناغش
أنا سيف غلاَّب ضد الإرهاب
بتحدى خراب جهل دواعش
وحزامي ورود مش نار وبارود
صاد الفراشات بحزام طايش
برقص وبغني وبكتب شعر
واصلي وأحاور وأناقش

وتردد خلفها أخواتها البنات :

احنا البنانيت سكر فتافيت
بكرة اللي عشانَّا الكون عايش
هانحرَّر كل بنات الكون
من مصر، لبغداد ، لمراكش

بعد الانتهاء من الغناء نزلت شمس من السيارة ، ووقفت شامخة بجوار أبيها أمام مجلس النواب تتقدم أخواتها البنات وفى يد كل منهن لافتة مكتوب عليها(نريد قانونا ينقذ التاء المربوطة لاصندوقا يسجنها).

تمت

نطالب بقانون يحمي النساء من بلطجة وليس صندوقاً يحبسهن

الكاتبة " د. جيهان سلام "

جيهان إبراهيم علي سلام وشهرتها (جيهان سلام)

- **حاصلة على دكتوراه الفلسفة في التربية وعنوان الرسالة : (دور منظمات المجتمع المدني في مواجهة الفاقد التعليمي في مدارس التعليم المجتمعي للأطفال المهمشين) .**
- **حاصلة على ماجستير في التربية وعنوان الرسالة (دراسة تقويمية للدور التربوي للمجلس القومي للأمومة والطفولة نحو تمكين الفتاة المصرية .**
- **حاصلة على دبلومة خاصة في التربية عن الفئات الخاصة (ذوي القدرات الخاصة) .**
- **خبير تربوي واستشاري أسري وباحث في شؤون المرأة والأطفال المهمشين داخل العشوائيات والنجوع والكفور وحصلت على منحة تفرغ من وزير الثقافة لتنفيذ فكرتها عن الدمج الاجتماعي والثقافي للأطفال المهمشين في صورة سلسلة أدبية للأطفال .**
- **زارت أمريكا في مهمة علمية خاصة بالعمل التطوعي ومنظمات المجتمع المدني وزارت مركز البحوث التربوية للطفولة المبكرة في ولاية يوتا ٢٠١٧.**
  وشاركت في فعاليات اتحاد الكتاب العرب في (أبوظبي) ٢٠١٥ .

- **كاتبة تربوية للأطفال واليافعين (قصة ، مسرح ، شعر ، رواية) .**
- **شاعرة تكتب الفصحى والعامية والأوبريتات التربوية .**
- **أعدت أفلاما وثائقية عن مسيرة التعليم في عهد قابوس في التليفزيون العماني .**
- **كتبت وأخرجت أفلاما وثائقية حول بعض المشروعات المصرية الكبري كقناة السويس .**
- **في إطار مشروع الكاتبة عن الدمج الاجتماعي والثقافي للأطفال المهمشين أعدت سلسلة أدبية للأطفال بعنوان "أحب الحياة رغم الألم " "مترجمة للانجليزية " تشمل قصصا عن الأطفال المهمشين في النجوع والكفور والمقابر وقضايا التحرش والختان والزواج المبكر والتسرب من المدرسة والتنمر وقضايا أطفال الحروب واللاجئين وذوي الاحتياجات الخاصة ومرضى السرطان من الأطفال .**

أعدت ونفذت أول مبادرة على مستوى الجمهورية في مواجهة التطرف الفكري الذي يتعرض له طلاب المدارس بعنوان : (سيلفي أربعة في واحد) شملت ثلاثة أفكار متطرفة وواجهتها مع الطلاب بثلاث مبادرات :

١ـ (أنا مش كافر ..أنا مش كافرة) في مواجهة تكفير الأطفال وتخويفهم من الله بسلوكيات متطرفة تنفرهم من الإسلام والفئة المستهدفة (المرحلة الابتدائية والإعدادية) .

٢ـ (المدرسة من غيرك صفر) في تعزيز فكرة دمج ذوي القدرات الخاصة ، ومواجهة بعض السلوك الفكري المتطرف من بعض المدرسين وبعض أولياء الأمور ، وبعض التلاميذ نحوهم ، وتعزيز السلوك الإيجابي

٣ـ (التعليم الفني حزام من ورود لا من بارود) في مواجهة الصورة الذهنية الخاطئة عن التعليم الفني

٤ـ (اغرس في قلبي وردة لا مطواة) الفئة المستهدفة (طلاب المرحلة الثانوية) .

أعمال مطبوعة للكاتبة :

أولا : أعمال موجهة للأطفال :

ـ مدرسة نوبل – رواية للأطفال .

ـ الصبية والعجوز في مملكة الكنوز – مسرحية شعرية للطلائع

ـ أنا والأسماء – قصص شعرية للأطفال .

ـ ثورة الطيور حدوتة شعرية للأطفال

ـ حفل زواج بنت الأسد مسرحية للأطفال "

ـ أنت يادوب سرطان "أوبريت شعري غنائي"طبعة خاصة بالأطفال مرضى السرطان

ـ أمنية ابنة رئيس الجمهورية (من سلسلة أحب الحياة رغم الألم) عن الدمج الاجتماعي والثقافي للأطفال المهمشين .

ـ البنت التي أبصرنا بعينيها (من سلسلة أحب الحياة رغم الألم) عن الدمج الاجتماعي والثقافي للأطفال المهمشين

ثانيا : الشعر :

- اشتباك " ديوان شعر
- ع المكشوف " ديوان شعر
- ابليس امرأة لاتصرف " ديوان شعر "
- أنا ونساؤك الخمسون " ديوان شعر "

ثالثا البحوث :

- أمهات ومبدعات الثورة المصرية من ١٩١٩الى ثورة ٢٥ يناير – دراسات نقدية
- العلاقات الزوجية في أدب المرأة (دراسة نقدية) .
- الدور التربوي للمجلس القومي للطفولة واللأمومة نحو تمكين الفتاة المصرية (دراسة تقويمية في ضوء أهدافه) دراسات تربوية
- عفاف طبالة تفك شفرة الجندر بالتكنولوجيا (دراسة نقدية لرواية فك شفرة)
- بيداغوجيا القيم التربوية في أدب الحرب والمقاومة (أحمد عبده نموذجا)
- دور أدب الأطفال في الدمج الاجتماعي لأطفال أفريقيا وتعزيز الهوية الأفريقية (رؤية استشرافية في ظل التعددية الثقافية بأفريقيا)

أعمال تحت الطبع :

- غزل زهرة الباسنت شعر للأطفال
- بنتي تقلد أبلة فضيلة شعر للأطفال
- كتاب خاص بمواجهة التطرف الفكري الذي يتعرض له الأطفال
- سلسلة للأطفال عن ذوي القدرات الخاصة